

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

إنّ أمتنا الإسلامية اليوم تمُر بمرحلة حاسمة اجتمع عليها أعداؤها من كل حدب وصوب، لا بالجيوش الجرارة كما كانت الحروب السابقة، وإنما بحرب جديدة أسموها: الحرب الناعمة، ويقصدون بها حرب الفكر والرأي،

وقد جَيَّشَ هؤلاء معظم وسائل الإعلام المقروءة منها والمسموعة والمنظورة لتحقيق أهدافهم.

ومن هذه الأهداف: إيصال أفكارهم وعقائدهم عن طريق ندوات ومؤتمرات حِوارية هادئة، يسعون من خلالها إلى التغرير بالسّذّج من أبناء المسلمين، ويركزون على عنصر المراهقين والشباب، الذين لم تعركهم الحياة بعد، بل وأبهرت بعضهم الحضارة الغربية بمظاهرها وأسلوب حياتها الذي لا تعقيد فيه ولا محرمات (كما يزعمون).

إنّ هذا الأسلوب الناعم الذي يستعمله أعداء الإسلام لتضليل الناس، وإبعادهم عن طريق الهدى والخير إلى طريق الغواية والشر.

قد أمر الله رسوله ﷺ باستعماله في دعوة الناس إلى طريق الهداية والنجاة، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد وردت أساليب كثيرة في الدعوة إلى الله، وكلها على درجة من الأهمية، وكان من أهمها: أسلوب الحكمة.

ولأهمية الحكمة، فقد ورد لفظها في كتاب الله تعالى في تسعة عشر موضعاً، في اثنتي عشرة سورة، وهي:

- سورة البقرة، في خمس آيات.
- سورة آل عمران، في ثلاث آيات.
- سورة النساء، في آيتين.

ثم وردت في آية واحدة في السور التالية:

- سورة المائدة.

- سورة النحل.
- سورة الإسراء.
- سورة لقمان.
- سورة الأحزاب.
- سورة ص.
- سورة الزخرف.
- سورة القمر.
- سورة الجمعة.

وقد اخترت منها ما ورد في سورة البقرة، فقمت بتفسيرها، وإيراد أهم أقوال المفسرين فيها، ثم بيان التوجيه الدعوي الذي اشتملت عليه هذه الآيات البينات، ثم ذكرت الدلالات الدعوية المستنبطة من كل آية، داعياً الله جلَّت قدرته التوفيقَ والسدادَ.

أهمية الموضوع

بيّن القرآن الكريم طرق الدعوة إلى الله، وكانت الحكمة في مقدمة هذه الطرق، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ومن تابع سيرة المصطفى ﷺ وجد أنه كان يلازم الحكمة في جميع أموره؛ لذلك أقبل الناس عليه، ودخلوا في دين الله أفواجاً، بفضل الله ثم بفضل هذا النبي ﷺ، الذي ملأ الله تعالى قلبه بالإيمان والحكمة.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كان أبو ذر رضي الله عنه يحدِّث أنّ رسول الله ﷺ قال: «**فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَاناً فَأَفْرَغَهَا فِي**

صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ...»[1].

وهكذا يتضح أنّ الحكمة من أعظم الأمور الأساسية في منهج الدعوة إلى الله، وقد امتلأ بها صدر رسول الله ﷺ - وهو صاحب الدعوة - إلى جانب الإيمان بالله تعالى، وهو قضية الدعوة.

ويؤكد قيمة الحكمة وأهميتها: حمل جبريل - عليه السلام لها وهو المؤتمن على الوحي بين الله تعالى وأنبيائه - في طست من ذهب، وهو من أغلى أنواع المعادن؛ ليمتلىء بها صدر رسول الله ﷺ خيرِ الخلق، بعد غسله بماء زمزم، وهو أطهر ماء على وجه الأرض، وهذا أيضاً يؤكد أنّ الحكمة أمرها كبير وشأنها عظيم[2].

ثم سار الصحب الكرام على هدي نبيهم ﷺ في الدعوة إلى الله، فامتد الإسلام وتوسع، وكذلك عمل التابعون، فأظهر الله الإسلام وأهله، وخذل الشرك وأهله.

منهج البحث

تتبعت الآيات التي وردت فيها كلمة «الحكمة»، التي هي مدار البحث، فوجدت أنها في تسعة عشر موضعاً في القرآن الكريم، وفي اثنتي عشرة سورة، وكان لسورة البقرة النصيب الأكبر من هذه الآيات، فاخترت ما ورد فيها من آيات ذكر فيها لفظ «الحكمة» وعددها خمس آيات، وعملت على تفسيرها من أمهات كتب التفسير، واخترت من المفسرين أشهرهم إمامة وقبولاً، وأطولهم باعاً.

وبعد تفسير الآيات وذكر أقوال العلماء من أهل التفسير فيها، قمت ببيان التوجيه الدعوي الذي اشتملت عليه هذه الآيات على ضوء أقوال

(١) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).
(٢) انظر: «الحكمة في الدعوة إلى الله» لسعيد القحطاني، ص٩ بتصرف.

المفسرين، ثم عمدت إلى استنباط الدلالات الدعوية من كل آية بما يتناسب مع توجه الدعاة، وبيان أهمية الدعوة بالحكمة التي أمر الله بها أنبياءه ورسله ومن سار على طريقهم واستن بسنتهم.

أما بخصوص الأحاديث الشريفة، فقد اعتمدت على الصحاح منها، وبالأخص صحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم، ولم أذكر من غيرهما إلا ما صح أو حَسُنَ، وتجنبت الأحاديث الضعيفة، فلم أذكر في البحث منها شيئاً.

وبخصوص تخريج الأحاديث، فقد اخترت الطريقة الحديثة في التخريج؛ وهي ذكر الحديث وأين ورد مع ذكر رقمه حسب التسلسل المعتمد في الموسوعات الإسلامية الإلكترونية الحديثة؛ كالمكتبة الشاملة، والمكنز الإسلامي، وغيرهما.

أسأل الله التوفيق والسداد في القول والعمل

والحمد لله رب العالمين

خطة البحث

قسمت البحث إلى ستة فصول على الشكل التالي:

الفصل الأول:

ويشتمل على سبعة مباحث:

الأول: تعريف الحكمة في اللغة.

الثاني: تعريف الحكمة في الاصطلاح.

الثالث: أنواع الحكمة.

الرابع: درجات الحكمة.

الخامس: أساليب الحكمة.

السادس: مقتضيات الحكمة.

السابع: أهمية وفضل أسلوب الحكمة.

الفصل الثاني:

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

الأول: بعض أقوال العلماء من أهل التفسير.

الثاني: التوجيه الدعوي للآية.

الثالث: الدلالات الدعوية المستنبطة.

الفصل الثالث:

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

الأول: بعض أقوال العلماء من أهل التفسير.

الثاني: التوجيه الدعوي للآية.

الثالث: الدلالات الدعوية المستنبطة.

الفصل الرابع:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

الأول: بعض أقوال العلماء من أهل التفسير.

الثاني: التوجيه الدعوي للآية.

الثالث: الدلالات الدعوية المستنبطة.

الفصل الخامس:

قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

الأول: بعض أقوال العلماء من أهل التفسير.

الثاني: التوجيه الدعوي للآية.

الثالث: الدلالات الدعوية المستنبطة.

الفصل السادس:

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

الأول: بعض أقوال العلماء من أهل التفسير.

الثاني: التوجيه الدعوي للآية.

الثالث: الدلالات الدعوية المستنبطة.

الفصل الأول
التعريفات

المبحث الأول
تعريف الحكمة في اللغة

للحكمة في اللغة عدة معانٍ، منها:

- النبوة - العلم - العدل - الحلم - العلة... إلخ.

جاء في المعجم الوسيط: الحكمة: معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم والعلم والتفقه والعدل والعلة، يقال: حكمة التشريع وما الحكمة في ذلك[(١)].

وجاء في كتاب العين: الحِكمةُ: مَرْجعُها إلى العَدْل والعِلْم والحِلْم[(٢)].

وجاء في القاموس المحيط: والحِكْمَةُ بالكسر: العَدْلُ والعِلْمُ والحِلْمُ والنُّبُوَّةُ والقُرْآنُ وَالإِنجِيل[(٣)].

ومن معاني الحكمة: الإتقان. جاء في القاموس المحيط: وأحْكَمَهُ: أتْقَنَه فاسْتَحْكَمَ ومَنَعه عن الفَسادِ[(٤)].

والإتقان: فيه منع للشيء المتقن من تطرق الخلل والفساد إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة: الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق

(١) المعجم الوسيط ١/١٩٠.
(٢) كتاب العين ٣/٦٦.
(٣) القاموس المحيط، الفيروزأبادي، ص١٤١٥.
(٤) المصدر السابق ص١٤١٥.

والتحديد الذي به يتحقق الشيء ويحصل إتقانه، ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل في الحد بالمنع جزء معناه لا جميع معناه(١).

ومن معاني الحكمة أنها تمنع صاحبها من الجهل، ويقال أحكم الشيء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد، فهو محكم وحكيم(٢).

وفي لسان العرب: الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم(٣).

قال الراغب: الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل(٤).

المبحث الثاني

تعريف الحكمة في الاصطلاح

قال الإمام النووي: أما الحكمة ففيها أقوال كثيرة مضطربة، قد اقتصر كل من قائليها على بعض صفات الحكمة، وقد صفى لنا منها: أنّ الحكمة عبارة من العلم المتصف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله تعالى، المصحوب بنقاء البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق والعمل به، والصد عن اتباع الهوى والباطل، والحكيم من له ذلك. قال أبو بكر بن دريد: كل كلمة وعظتك وزجرتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة(٥).

قال الإمام الطبري: الحكمة السنة(٦).

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى ٢/٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/٢٨٨.

(٣) لسان العرب ١٢/١٤.

(٤) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني ص١٢٧.

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٣٣.

(٦) جامع البيان في تأويل القرآن ٢٣/٣٧٢.

قال الإمام القرطبي: الحكمة الفقه في الدين، وبه قال مالك بن أنس[1].

قال الإمام البروسوي: الحكمة هي الإصابة في القول والعمل، ولا يسمى حكيماً إلا من اجتمع له الأمران[2].

قال الإمام الشوكاني: الحكمة المعرفة بالدين، والفقه في التأويل، والفهم للشريعة[3].

قال الإمام ابن كثير: الحكمة الفهم والعقل والفطنة، وبه قال مجاهد[4].

وقد ذكر بعضهم تسعة وعشرين قولاً في تعريف الحكمة[5].

قال الشيخ ابن عاشور: الحكمة العلم بالله ودقائقِ شرائعه، وهي معاني الكتاب وتفصيل مقاصده[6].

وهذه الأقوال كلها، قريب بعضها من بعض؛ لأنّ الحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في قول أو فعل، فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس، وكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة، وكل ما ذكر من التفصيل فهو حكمة، وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه، فقيل للعلم: حكمة؛ لأنه يمتنع به من السفه، وبه يعلم الامتناع من السفه الذي هو كل فعل قبيح[7].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩١/١٨.
(٢) تنوير الأذهان ١٢٠/١.
(٣) فتح القدير ٢٠٩/١.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٥٩/٧.
(٥) تفسير البحر المحيط ـ أبو حيان الأندلسي ٣٢٠/٢.
(٦) التحرير والتنوير ٧٠٤/١.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ٣٣٠/٣.

وعند التأمل والنظر نجد أنّ التعريف الشامل الذي يجمع ويضم جميع هذه الأقوال في تعريف الحكمة هو: الإصابة في الأقوال والأفعال ووضع كل شيء في موضعه[1].

والحكمة في كتاب الله نوعان: مفردة - ومقرونة بالكتاب، فالمفردة كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ وهذا النوع كثير في كتاب الله.

أما الحكمة المقرونة بالكتاب: كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

إلى غير ذلك من الآيات التي وردت بهذه الصيغة. وكثير من المفسرين فسروا الحكمة المقرونة بالكتاب بأنها سنة المصطفى ﷺ[2].

المبحث الثالث

أنواع الحكمة

الحكمة نوعان:

الأول: حكمة علمية نظرية، وهي الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خَلقاً وأمراً، قدراً وشرعاً.

---

(١) الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد القحطاني ص٢٧.

(٢) مدارج السالكين ٢/٤٧٨.

النوع الثاني: حكمة عملية، وهي وضع الشيء في موضعه.

فالحكمة العلمية والنظرية مردُّها إلى العلم والإدراك.

والحكمة العملية مردُّها إلى فعل العدل والصواب، ولا يمكن خروج الحكمة عن هذين المعنيين؛ لأنَّ كمال الإنسان في أمرين: أن يعرف الحق لذاته، وأن يعمل به، وهذا هو العلم النافع والعمل الصالح(١).

وقد وهب الله أنبياءه ورسله هذين النوعين، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٨٣].

فالحكمة العلمية النظرية ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ والحكمة العملية ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

كذلك قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤].

فالحكمة العلمية النظرية ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ والحكمة العملية ﴿فَاعْبُدْنِي﴾.

وقال تعالى في شأن خير الخلق محمد ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

فالحكمة العلمية النظرية ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ والحكمة العملية ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾.

وقال تعالى في حق جميع الأنبياء: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

فالحكمة العلمية النظرية ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ والحكمة العملية ﴿فَاتَّقُونِ﴾(٢).

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم ٢/٤٧٨.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٧/٦٨.

المبحث الرابع

درجات الحكمة العملية

ولما كانت الحكمة العملية هي تطبيق للحكمة العلمية النظرية، فقد قسمها العلماء إلى ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه حدّه، ولا تعجله عن وقته، ولا تأخره عنه.

الدرجة الثانية: معرفة عدل الله في وعيده، وإحسانه في وعده، وعدله في أحكامه الشرعية والكونية الجارية على الخلائق؛ فإنه لا ظلم فيها ولا جور، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [النساء: ٤٠].

وكذلك معرفة بِرّه في منعه، فإنه سبحانه هو الجواد الذي لا ينقص خزائنه الإنفاق، ولا يغيض ما في يمينه سعة عطائه، فهو سبحانه لا يضع بِرّه وفضله إلا في موضعه ووقته بقدر ما تقتضيه حكمته، فما أعطى إلا بحكمته ولا منع إلا بحكمته ولا أضل إلا بحكمته.

الدرجة الثالثة: البصيرة.

والبصيرة هي أعلى درجات العلم وفيها قوة الإدراك والفطنة، وتكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة ثم المخلصين من أتباع النبي ﷺ وهي أعلى درجات العلماء(١).

قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨].

ورد في المعجم الوسيط أنّ البصيرة: قوة الإدراك والفطنة والعلم والخبرة(٢).

---

(١) مدارج السالكين ٢/٤٨٢.

(٢) المعجم الوسيط ١/٥٩.

المبحث الخامس

أساليب الحكمة

ربما يظن البعض أنّ الحكمة تقتصر على الكلام السهل الذي يصاحبه الرفق والعفو فحسب، لكن في الواقع أنها أكثر من ذلك؛ فإنّ أساليب الحكمة متعددة، منها:

١. الحِلم واللين، ويستعمل هذا الأسلوب مع من قبِل الحق وسلَّم له.

٢. الموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق، والترهيب من الباطل لمن لديه تردد.

٣. الحكمة باستخدام الجدال بالتي هي أحسن، وردّ الباطل عن طريق الأدلة النقلية والعقلية.

٤. وقد تكون باستخدام القوة في العبارة إذا واجهت معاندين مصرِّين على العناد؛ كأهل المذاهب الضالة والأفكار المنحرفة واللئام من الناس.

٥. وقد تكون باستخدام السلاح إذا واجهت من يريد قتال أهل الحق وإلحاقَ الأذى بهم ومنعَ نشر دعوتهم؛ كأعداء الإسلام الذين يقتلون المسلمين في بورما اليوم، لا لأنهم آذوهم، لكن لأنهم مسلمون.

قال الشاعر في أمثال هؤلاء:

دعا المصطفى دهراً بمكة لم يجب ... وقد لان منه جانب وخطاب
فلما دعا والسيف صلت بكفه ... له أسلموا واستسلموا وأنابوا[1]

---

(١) ورد في مجموع فتاوى الشيخ ابن باز ٣/١٨٤ ونسب الأبيات لحسان بن ثابت ﷺ.

المبحث السادس

من مقتضيات الحكمة

تجعل الداعية إلى الله يضع الأمور في نصابها ويقدرها بقدرها، فلا يلجأ إلى الانقطاع عن الناس والانزواء بين جدران المسجد أو المصلى والناس بحاجة إلى من يعلمهم أصول دينهم، للحفاظ على عقيدتهم وشريعتهم. ولا يزهد الناس في الدنيا ويدعوهم إلى التبتل، والأمة بحاجة إلى الجد والعمل والبناء لمواجهة أعدائها.

وعلى الداعية الحكيم أن لا يقدّم السنة على الفريضة، ولا المستحب على الواجب. كما أنّ عليه أن لا يساوي بين الحرام والمكروه، ولا يقدم المهم على الأهم، ولا يجعل اهتمامه بالفروع كاهتمامه بالأصول في تعليم الناس، ولا يجعل المسائل الفقهية كأسس العقيدة، بل عليه أن يضع كلَّ شيء في نصابه.

والحكمة تقتضي من الداعية أن يخاطب الناس على قدر عقولهم، وأن يعلم العامة ما يحتاجونه بألفاظ قريبة من أفهامهم، ويبحث عن حاجة الناس فيعالجها بأسلوب شيّق يتفذ إلى قلوب الناس وتنشرح له صدورهم.

ومن الحكمة مراعاة أحوال المدعوين وظروفهم ومعرفة طبائعهم والأمور التي تلامس واقعهم والقضايا الملحة في مجتمعهم.

فالحكمة تجعل الداعية ينظر ببصيرة المؤمن العامل لا الخامل، الذي يحرص على أن تكون أفعاله وفق أقواله موافقة للحق غير متقدمة على أوانها غير متأخرة عن زمانها، مجتهداً في معرفة آلام الأمة وما يصلحها، سالكاً طريق الصواب في الوصول إلى غايتها لإحقاق الحق ونشر الفضيلة وتعليم الناس دين الله الذي ارتضاه لعباده.

المبحث السابع

أهمية وفضل أسلوب الحكمة

تظهر أهمية أسلوب الحكمة ويتجلى فضله في عدة أمور، منها:

١. من معنى الحكمة الذي يجمع الحكمة النظرية والعملية، ولا يسمى الرجل حكيماً إلا باجتماع النوعين معاً(١).

٢. من اختيار الله لنفسه اسم (الحكيم)، وتكراره في القرآن ما يقارب ثمانين مرة.

٣. من ملء قلب رسول الله ﷺ بالحكمة، لما ورد في الصحيحن: **«فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَاناً فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ...»**(٢).

٤. من جعل تعليم الحكمة من أبرز أعماله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

٥. من أمر الله الدعوة بها، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ...﴾ [النحل: ١٢٥].

٦. من جعلها أفضل ما يعطاه المرء، قال تعالى: ﴿...وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

---

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ٤١٣/١، تفسير الرازي ٧٣/٤.
(٢) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

٧. من كونها مما يتحاسد عليه في الدنيا، قال رسول الله ﷺ: **«لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»**[١].

إلى غير ذلك من النصوص التي تدل على فضل هذا الأسلوب وأهميته[٢].

(١) رواه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).

(٢) انظر: «المدخل إلى علم الدعوة ـ للبيانوني» ص٢٤٥.

الفصل الثاني

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

المبحث الأول

أقوال بعض علماء التفسير في الآية الكريمة

يقول الإمام الآلوسي: أي: أرسل في الأمة المسلمة، وقيل: في الذرية رسولاً منهم، أي: من أنفسهم، ووصفه بذلك ليكون أشفق عليهم ويكونوا أقرب للإجابة؛ لأنهم يعرفون منشأه وصدقه وأمانته(١).

يقول الإمام صاحب البحر المحيط، في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾:

لمَّا دعا ربَّه بالأمن لمكة وبالرزق لأهلها، وبأنْ يجعل من ذريته أمَّة مسلمة، ختم الدعاء لهم بما فيه سعادتهم دنيا وآخرة؛ وهو بعثه ﷺ فيهم، فشمل دعاؤه لهم الأمن والخصب والهداية(٢).

يقول الإمام الرازي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾:

ولهذا كان يقول ﷺ: **«أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى»** وهو قوله: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فإنه مشتق من الحمد، والاسم المشتق من الحمد ليس إلا لنبينا؛ فإنَّ اسمه محمد وأحمد، قيل: إنَّ صفته في التوراة، وأنَّ مولده بمكة، ومسكنه

(١) روح المعاني ١١/٢، باب ١٢٩.

(٢) البحر المحيط ـ محمد الأندلسي ـ ١٣/٢، باب ١٢٤.

بطيبة، وملكه بالشام[1].

قال الإمام محمد بن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾:

وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا ﷺ يقول: «**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى**»[2].

ويعلمهم الكتاب والحكمة، عن قتادة قال: «الحكمة، أي: السنة، وقال بعضهم: الحكمة هي المعرفة بالدين والفقه فيه»[3].

يقول الشيخ الشوكاني: الضمير في قوله: ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ راجع إلى الأمّة المسلمة وقرأ أُبَيّ: **(وابعث في آخرهم)** ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى الذرية، وقد أجاب الله لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة، فبعث في ذريته ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وهو محمد ﷺ، وقد أخبر عن نفسه أنه دعوة إبراهيم عليه السلام. والمراد بالكتاب: القرآن والمراد بالحكمة: المعرفة بالدين، والفقه في التأويل، والفهم للشريعة. قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، أي: يطهرهم من الشرك وسائر المعاصي، وقوله: ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يعزه شيء. وقال الكسائي: العزيز: الغالب[4].

ورد في تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير في تفسير الآية: يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، أي: من ذرية إبراهيم وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرَ الله السابق في تعيين محمد ﷺ رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجمين من الإنس والجن. قال الإمام أحمد في الحديث الذي رواه أبو أمامة قال:

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢/٦٢، باب ٤٠.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ٣/٨٣، باب ١٢٩.
(٣) جامع البيان ٣/٨٧.
(٤) فتح القدير، محمد الشوكاني ١/٢٠٩.

قلت: يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك؟، قال: «**دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى بي ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام**»(١).

بشرى عيسى هو قول عيسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وقوله: «**رأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام**»، قيل: كان مناماً رأته حين حملت به، وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم.

وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم، إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»(٢) وفي البخاري: «**هم بالشام**».

قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني أمّة محمد ﷺ، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني السنة، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: يعني طاعة الله والإخلاص، وقال محمد بن إسحاق: يعلمهم الخير فيفعلوه والشر فيتقوه، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: العزيز الذي لا يعجزه شيء وهو قادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالها وحكمته وعدله(٣).

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢١٢٣١).

(٢) رواه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢٠).

(٣) تفسير القرآن لابن كثير ١/١٨٩.

ورد في تنوير الأذهان: معنى الحكمة: ما يكمل به نفوسهم من المعارف الحقة والأحكام الشرعية، قال ابن دريد: كل كلمة وعظتك أو دعتك إلى مكرمة، أو نهتك عن قبيح فهي حكمة(١).

والناس يسمون من يتقن الصناعات الدقيقة بأنه حكيم، وكذلك البعض يطلقون على كبار الفلاسفة بأنهم حكماء، والحق أنَّ من جَهِلَ معرفة الله فهو جاهل، مهما ألقي عليه من المسميات، فمن لم يعرف الخالق وتحدث عن المخلوق ورأى الخلق وزاغت بصيرته عن موجد هذا الخلق فهو أبعد الناس عن الحكمة، بل هو أقربهم إلى الجهل منه إلى العلم.

المبحث الثاني

التوجيه الدعوي للآية

يدور الحديث في الآية التي بين أيدينا وما سبقها حول دور أبي الأنبياء إبراهيم مع ابنه الذبيح إسماعيل عليهما السلام؛ فقد جعل الله إبراهيم عليه السلام إماماً للناس في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وطلب إبراهيمُ من ربه أنْ تستمر هذه الإمامة في ذريته، ومن ذريته إسماعيل وإسحاق، فإسماعيل يرجع إليه العرب، وإسحاق يرجع إليه اليهود، وعندما طلب إبراهيم عليه السلام استمرار الإمامة في ذريته، كان الرد الإلهي: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ومن معاني الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فمن حاد عن نهج الحنيفية التي دعا إليها إبراهيم فهو ظالم، وقد شمل هذا الظلم اليهود والنصارى الذين جاؤوا بعدهم، وكذلك أهلَ الشرك من العرب، سواء كانوا من قريش أو من غيرها، ثم عهد الله تعالى إلى إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا بيته الشريف لمن يريد الطواف أو الاعتكاف أو الصلاة، وتطهير البيت بناقد ما فعله أهل الشرك من وضع الأصنام حول الكعبة، أو

---

(١) تنوير الأذهان في تفسير روح البيان إسماعيل البروسوي ١/١٠٨.

دعوة غير الله في بيت الله، ومن تمام النعمة ولاستمرار عمارة هذا البيت دعا إبراهيم ربه أنْ يجعل مكة بلداً آمناً، وأنْ يرزق أهله من الثمرات التي تجلب إليها من شتى أقطار الأرض؛ فترى اليوم في مكة من الثمار والفاكهة ما لا تراه في أي مكان آخر في العالم، ففيها كل الثمار على طول العام؛ فترى فاكهة الصيف في الشتاء، وترى فاكهة الشتاء في الصيف، وهكذا، وهذا من فضل الله تعالى ثم بفضل دعوة إبراهيم عليه السلام، وهذه الدعوة من إبراهيم تسمى في علم اليوم: بالإعداد الاستراتيجي للبيت وما حوله.

فإذا أردت ازدهار مكان ما وإقبال الناس عليه دون انقطاع، فلا بد أن تهيأ له الأمان حتى يطمئن فيه الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وكذلك سبل العيش الكريم من تأمين الطعام وازدهار العمران ووسائل المواصلات التي بسببها تزدهر التجارة ويكثر الدخل الفردي ويرتفع مستوى المعيشة، فيعم الرخاء والاطمئنان بين الناس.

ثم يخبرنا تعالى بحال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان القواعد من البيت، وكيف أنهما دعيا ربهما أنْ يتقبل منهما عملهما هذا. وفي ذلك درس هام للدعاة إلى الله، فإبراهيم وإسماعيل يبنيان بيتاً لله بوسائل بدائية، يحملون فيه الأحجار الضخمة التي يجب أن ترفع إلى مكانٍ عالٍ، فعلى الرغم من العناء الشديد والإجهاد الذي أصابهما لم يتبرما أو يتأففا، بل كان دعاؤهما ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، هَمُّهما الأول أنْ يتقبل الله منهما هذا العمل، وأنْ يجعلهما مسلمين، ولم يكتفيا بنفسيهما وبمن معهم في ذلك الزمن، بل طلبا من الله تعالى أنْ يجعل من ذريتهما أمة مسلمة لله واضحة شعائرها وشريعتها، ثم طلبا التوبة من الله تعالى والمغفرة لذنوبهما، مع أنهما يعملان في طاعة الله ومرضاته، فرجاؤه لم ينسهما من خوفه والعمل بالطاعات لم ينسهما من طلب مغفرته.

أيُّ معانٍ سامية في هذا الدعاء وفي هذا التوجه إلى رب الأرض والسماء؟!، ومع هذا السمو في الدعاء وبأن تكون ذريتهم على الحنيفية

السمحاء، فقد زادهما حرصهما على مستقبل الأمة البعيد خشية أن يطرأ عليه التغيير أو التبديل، فدعا الله تعالى أن يبعث فيهم رسولاً منهم ـ لا من غيرهم ـ وهذا إكرام لهم، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

إنَّ قلب إبراهيم عليه السلام على أمته في حاضرها وفي مستقبلها لم ينسه واقع مكة في واد غير ذي زرع عن دعوته للأمة المسلمة التي سترث ميراثه العقائدي والدعوي بأن يهيِّئ الله لها رسولاً منها يثبتها على الحق رافعة راية التوحيد مقيمة لشرع الله.

واستجاب الله تعالى دعوة إبراهيم وإسماعيل وبعث في أمة العرب رسولاً منهم من ذرية إسماعيل، هو محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وخير خلق الله عند رب العالمين، فعَلَّم أمته الكتاب والحكمة وزكاهم أحسن تزكية، حتى ظهر جيل فريد من الصحابة الكرام لم تعرف له البشرية مثيلاً من قبل، وورثت أمة محمد ﷺ الإمامة عن إبراهيم عليه السلام؛ لأنها الأمة المسلمة القائمة بأمر الله الوارثة لدين الله الصافي النقي، وخاب اليهود الذين زعموا أنهم ورثة إبراهيم، فورثة إبراهيم هم الموحدون لله تبارك وتعالى، أما من زعم أنَّ عزيراً ابن الله، أو أنَّ المسيح ابن الله ـ تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً ـ فلا يحق له ولو بلحظة واحدة الزعم بأنه وريث إبراهيم، ومتى كان للشرك أن يرث أهل التوحيد؟، إنما يرث الحق وأهل الحق من أحيا الحق بإحيائه لدين الحنيفية السمحاء والشريعة الغراء.

وحين قام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بتنفيذ أمر ربهما في بناء البيت، كانت دعوتهما أنْ يكونا مسلمين لله، وأنْ يجعل في ذريتهما أمَّة مسلمة، فاستجاب الله لهما وأرسل النبي الخاتم، محمداً ﷺ، وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله والوارثة لدين الله الحق.

وحريٌّ بالدعاة اليوم وفي كل يوم أنْ يحذوا حذوَ إبراهيم عليه السلام في دعائه لربه بإصلاح واقع الأمة وإصلاح مستقبلها، فلم تثنه مرارة الواقع

وصعوبته عن النظر إلى مستقبل الأجيال التي ستأتي بعد قرون أنْ تكون أمَّة مسلمة لله، وأنْ يخصهم برسول منهم لضمان طاعته والسير على نهجه المستقيم ومنهجه القويم.

المبحث الثالث

الدلالات الدعوية المستنبطة

١ ـ أنّ هَمَّ العقيدة هو شغل الداعية الشاغل وهو همّه الأول.

٢ ـ جعل الله إبراهيم عليه السلام إماماً للناس.

٣ ـ استجاب الله لدعوة إبراهيم بأن جعل الإمامة في ذريته.

٤ ـ عهد من الله أن لا ينال الظلمة الإمامة الرشيدة.

٥ ـ طهر الله الكعبة من أرجاس الشرك.

٦ ـ جعل الله مكة بلداً آمناً، وهذه الميزة ليست لغيرها على وجه الأرض، باستثناء المدينة المنورة.

٧ ـ رزق الله أهل مكة ـ التي لا زرع فيها ولا ضرع ـ من كل الثمرات.

٨ ـ دعاء إبراهيم عليه السلام ربّه أن يرزق أهل مكة من الثمرات يدخل في الإعداد الاستراتيجي للمستقبل.

٩ ـ رجاء الداعية المخلص أن يتقبل الله عمله.

١٠ ـ الداعية الصادق يحمل همَّ الأجيال القادمة.

١١ ـ كثرة الاستغفار دليل خشية الجبار.

١٢ ـ الاستغفار الدائم شعور بِعِظَمِ الذنْب، حتى لو لم يقع.

١٣ ـ العمل بالطاعة يجب أنْ لا يُنسي الداعيةَ شؤم المعاصي.

١٤ ـ مرارة الواقع يجب أنْ لا تنسيَ الداعية هَمَّ المستقبل.

١٥ ـ استجابة الله تعالى دعوات أهل الصلاح والإصلاح.

١٦ ـ وراثة إمامة الناس للأمة التي سارت على نهج الرسول ﷺ.

١٧ ـ وراثة الأرض لعباد الله الصالحين.

١٨ ـ إنما يرث دعوة التوحيد أهل التوحيد، أمّا أهل الشرك فليس لهم إلا الخذلان.

الفصل الثالث

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة: ١٥١].

المبحث الأول

بعض أقوال أهل التفسير

يقول الإمام ابن كثير: يُذكِّر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبينات وَيُزَكِّيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودَنَس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب - وهو القرآن - والحكمة - وهي السنة - ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فكانوا في الجاهلية الجَهْلاء يُسفَهُون بالعقول الغرّاء، فانتقلوا ببركة رسالته، ويُمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة(١).

ورد في تنوير الأذهان في معنى قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾: قال: متصل بما قبله، أي: ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة إتماماً كائناً، كإتمامي لها بإرسال رسول كائن منكم، وهو محمد ﷺ.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ وهو القرآن العظيم.

﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ أي: يحملكم على ما تصيرون به أزكياء طاهرين من دنس الذنوب المكدرة لجوهر النفس.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: ما في القرآن من المعاني والأسرار والشرائع

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/٢٠١.

والأحكام؛ فإنه ﷺ كان يتلو عليهم ليحفظوا نظمه ولفظه، ومع ذلك كان يعلمهم ما فيه من الحقائق والأسرار؛ ليهتدوا بهداه وأنواره.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هي الإصابة في القول والعمل، ولا يسمى حكيماً إلا من اجتمع له الأمران.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ قال الراغب: عنى بذلك العلوم التي لا طريق إلى تحصيلها إلا من جهة الوحي[(١)].

جاء في تفسير الإمام أبي السعود في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾:

أي: ولأتمَّ نعمتي عليكم في أمر القِبلة أو في الآخرة إتماماً كائناً كإتمامي لها بإرسال رسولٍ كائنٍ منكم؛ فإنّ إرسالَ الرسول لا سيما المجانسُ لهم نعمةٌ لا يكافئُها نعمة قطُّ. ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ صفة ثانيةٌ لرسول كاشفةٌ لكمال النعمة.

﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ عطفٌ على يتلو، أي: يحمِلُكم على ما تصيرون به أزكياءَ. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ صفةٌ أخرى مترتبةٌ في الوجود على التلاوة، وإنما وسَّطَ بينهما التزكية التي هي عبارةٌ عن تكميل النفسِ بحسبِ القوةِ العملية وتهذيبِها المتفرِّع على تكميلها بحسَب القوة النظرية الحاصلِ بالتعليم المترتب على التلاوة لَلإيذان بأنّ كلاً من الأمور المترتبة نعمةٌ جليلةٌ على حِيالها مستوجبةٌ للشكر. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ فإنّ الموصولَ مع كونه عبارةً عن الكتاب والحِكمة قطعاً قد عُطف تعليمُه على تعليمها، وما ذلك إلا لتفصيل فنونِ النعم في مقامٍ يقتضيه، والمراد بعدم علمِهم أنه ليس من شأنهم أن يعلموه بالنظر وغيرِ ذلك من طرق العلم؛ لانحصار الطريقِ في الوحي[(٢)].

---

(١) تنوير الأذهان ١/١٢٠.

(٢) تفسير أبي السعود (١/٢٢٥).

قال الإمام الآلوسي في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾:

متصل بما قبله، فالكاف للتشبيه وهي في موضع نصب على أنه نعت لمصدر محذوف، والتقدير: لأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة أو في الآخرة إتماماً مثل إتمام إرسال الرسول، وذكر الإرسال وإرادة الإتمام من إقامة السبب مقام المسبب، و﴿فِيكُمْ﴾ متعلق بأرسلنا، وقدم على المفعول الصريح تعجيلاً بإدخال السرور، ولِما في صفاته من الطول، وقيل: متصل بما بعده، أي: اذكروني ذكراً مثل ذكري لكم بالإرسال، أو اذكروني بدل إرسالنا فيكم رسولاً، فالكاف للمقابلة متعلق باذكروني، ومنها يستفاد التشبيه؛ لأنّ المتقابلين متشابهان ومتبادلان، وإيثار صيغة المتكلم مع الغير بعد التوحيد افتنان وجريان على سنن الكبرياء، وإشارة إلى عظمة نعمة هذا الإرسال، وهذا الرسول ﷺ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ صفةُ ﴿رَسُولًا﴾ وفيه إشارة إلى طريق إثبات نبوته ﷺ؛ لأنّ تلاوة الأمّيّ الآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بلاغتها واشتمالها على الإخبار بالمغيبات والمصالح التي ينتظم بها أمر المعاد والمعاش أقوى دليل على نبوته.

﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يطهركم من الشرك وهي صفة أخرى للرسول، وأتى بها عقب التلاوة؛ لأنّ التطهير عن ذلك ناشىء عن إظهار المعجزة لمن أراد الله تعالى توفيقه.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ صفة إثر صفة، وأخرت لأنّ تعليم الكتاب وتفهيم ما انطوى عليه من الحكمة الإلٰهية والأسرار الربانية إنما يكون بعد التخلي عن دنس الشرك ونجس الشك بالاتباع، وأما قبل ذلك فالكفر حجاب، وقدَّم التزكية على التعليم في هذه الآية وأخَّرها عنه في دعوة إبراهيم عليه السلام؛ لاختلاف المراد بها في الموضعين، ولكل مقام مقال، وقيل: قدمت التزكية تارة وأخرت أخرى لأنها علة غائية لتعليم الكتاب والحكمة، وهي مقدمة في القصد والتصور، مؤخرة في الوجود والعمل، فقدمت وأخرت رعاية لكل منهما.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ مما لا طريق إلى معرفته سوى الوحي، مبين لكون إرساله ﷺ نعمة عظيمة، ولولاه لكان الخلق متحيزين في أمر دينهم لا يدرون ماذا يصنعون(١).

قال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾: ولأتمّ نعمتي عليكم ببيان شرائع ملتكم الحنيفية، وأهديَكم لدين خليلي إبراهيم عليه السلام، فأجعل لكم دعوته التي دعاني بها ومسألته التي سألنيها، فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾(٢)، وقبلها ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾.

المبحث الثاني

التوجيه الدعوي للآية

في الآية لفت نظر إلى ما سبقها من آيات ذكر الله فيها إبرهيم عليه السلام وهو يرفع القواعد من البيت، هو والذبيح إسماعيل، يوم أن دعا الله أن يبعث في بنيه رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وفي هذا ذكرى للمسلمين أنّ بعثة محمد ﷺ هي الاستجابة المباشرة لدعوة إبراهيم عليه السلام، وفي هذا دليل واضح بأنّ أمرهم ليس مستحدثاً، إنما هو قديم، وأنّ قبلتهم ليست بدعة، بل هي قبلة أبيهم عليه السلام، وأنّ نعمة الله عليهم عظيمة عندما وعدها لخليله وعاهده على تطبيقها منذ ذلك التاريخ الغارق في القدم.

إنّ نعمة الله في توجيه المسلمين إلى القبلة المشرفة وتمييز الأمّة

(١) روح المعاني (٢/٦١).

(٢) جامع البيان (٣/٢٠٨). سورة البقرة، الآية ١٢٩.

المسلمة عن غيرها من الأمم، هي إحدى النعم التي خص الله بها المسلمين، سبقها نعمة إرسال رسول من أمّة العرب؛ فهو التكريم من الله والفضل من ذي الجلال أن تكون الرسالة فيكم، وأن يختار الله الرسول الخاتم منكم، وقد كانت اليهود تتمنى لو كان منهم؛ ليكون لهم شرف ختام الأنبياء والرسل والكتب، ولكنّ الله حرمهم من هذا؛ لأنهم خالفوا ما عاهدوا الله عليه، ونبذوا تعاليم أنبيائهم وراء ظهورهم، وغرتهم الحياة الدنيا؛ فأنعم الله على أمّة الإسلام أنْ جعل هذا النبي منهم، يتلو عليهم آيات الرحمٰن، وفي ذلك إشعار بعظمة فضل الله أنْ يخاطب الله عبيده بكلام يتلوه عليهم رسولهم الخاتم؛ فالله في عليائه سبحانه يخاطب هؤلاء الناس ويتحدث إليهم بقوله، ويمنحهم هذه المرتبة العالية؛ لعلمه ﷻ أنّ فيهم من يستحق هذا الإنعام، ويزيدهم الله من نعمه بأنْ يزكيهم ويطهرهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية، كما يطهر مجتمعهم من المعاملات المحرمة؛ كالربا والغش والسلب، ويطهر حياتهم من الظلم، وبنشر العدل الذي لم تعرفه البشرية كما عرفته في ظل الإسلام وحكم الإسلام.

ومن فضل الله على الأمّة: أنْ علمها الكتاب الذي اختصها به من بين الأمم، والذي تعهد بحفظه تبارك وتعالى، وبعد الكتاب علمهم الحكمة، وهي ثمرة التعليم بهذا الكتاب، وهي ملَكة يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها الصحيحة وإدراك غايات الأوامر والتوجيهات، وقد تحققت هذه المعاني كاملة في صحابة رسول الله ﷺ.

ومن نعم الله تعالى: أنْ علمهم ما لم يكونوا يعلمون. لقد غيّر هذا الدين أمّة العرب، من أمة أمّية منسية تعيش على هامش التاريخ وعلى بابه الخلفي إلى خير أمة أخرجت للناس، إلى أمة قادت البشرية قيادة حكيمة راشدة.

وكان هذا القرآن مع توجيهات الرسول ﷺ مادةَ التوجيه والتعليم، وكان مسجد رسول الله ﷺ أعظمَ الجامعات في التاريخ، الذي خرّج ذلك الجيل، الذي قاد البشرية تلك القيادة الحكيمة الراشدة.

وما زال هذا المنهج القرآني الذي خرّج ذلك الجيل وتلك القيادات السامقة على استعداد لتخريج أجيال أخرى وقيادات جديدة على مدار الزمان، وإلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها.

المبحث الثالث

الدلالات الدعوية في الآية

١ ـ استجاب الله دعوة إبراهيم عليه السلام في بعث خاتم النبيين، محمدٍ ﷺ.

٢ ـ دعوة محمد ﷺ هي امتداد لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام.

٣ ـ قبلة المسلمين هي عودة إلى قبلة أبي الأنبياء، وليست مستحدثة.

٤ ـ تميُّز أمّةِ الإسلام عن اليهود والنصارى بالاتجاه إلى الكعبة المشرفة.

٥ ـ من فضل الله تعالى على الأمّة أنْ جعل الرسول الخاتم ﷺ منها، لا من غيرها.

٦ ـ شرّف الله الأمّة بأنْ جعل كتابها الكتابَ الخاتم، والمهيمن على سائر ما سبقه من الكتب المنزلة.

٧ ـ أكرم الله تعالى الأمّة بأنْ جعل دينها الدينَ الخاتم.

٨ ـ من خصائص دين الإسلام أنه عام للبشر كافة، ولم يكن لقوم بعينهم.

٩ ـ من فضل الله تعالى على عباده المؤمنين أنْ خاطبهم من خلال نبيهم ﷺ، وتحدث إليهم من عليائه تبارك وتعالى.

١٠ ـ من فضل الله تعالى أنْ تعهد بحفظ كتابه المنزل إلى نبيهم الخاتم ﷺ.

١١ ـ كان جيل الصحابة الجيلَ الفريد، الذي تحققت فيه توجيهات القرآن في معانيه كاملة.

١٢ ـ علَّم الله هذه الأمّة من أخبار السابقين واللاحقين ما لم تكن تعلم.

١٣ ـ جعل الله من أمّة العرب التي كانت تعيش على هامش الحياة قبل الإسلام خيرَ أمّة أخرجت للناس بعد الإسلام.

١٤ ـ نقل الإسلام الصحابة من رعاة إبل إلى قادة البشر ومعلميهم.

١٥ ـ أنّ هذا الدين بما له من خصائص، قادر بعون الله أنْ يستمر في تخريج قيادات جديدة للأمة على مدار الأزمان وإلى أنْ تقوم الساعة.

الفصل الرابع

الآية الثالثة، قوله تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٣١].

المبحث الأول

بعض أقوال أهل التفسير

ورد في تفسير روح البيان أنّ الآية نزلت في رجل من الأنصار يدعى ثابت بن يسار، طلق امرأته حتى إذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها بقصد مضارتها.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: نساءكم.

﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: آخر عدتهن وشارفن منتهاها.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: راجعوهن من غير طلب إضرار لهن بالرجعة. والمعروف ما ألفته العقول واستحسنته النفوس شرعاً وعرفاً وعادة، فالمراد به هنا: حسن المعاشرة.

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾ أو خلوهن حتى تنقضي عدتهن من غير تطويل.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ أي: ولا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن بتطويل العدة والحبس.

﴿لِّتَعْتَدُوا۟ۚ﴾ أي: لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من الإمساك المؤدي إلى الظلم ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ في ضمن ظلمه لهن بتعريضها للعقاب.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المنطوية على الأحكام المذكورة أو جميع آيات الله ﴿هُزُوًا﴾ أي: مهزوّاً بها بالإعراض عنها والتعاون في العمل بما فيها، والنهي كناية عن الأمر بضده، أي: جدوا في الأخذ بها والعمل بما فيها، وارعوها حق رعايتها.

ولما رغبهم في رعاية التكاليف والعمل بها بالتهديد على التهاون بها، أكد ذلك الأمر بذكر نعم الله عليهم بأنْ يشكروها ويقوموا بحقوقها، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ حيث هداكم إلى ما فيه سعادتكم الدينية والدنيوية، أي: قابلوها بالشكر والقيام بحقوقها، وقيل: واذكروا إنعام الله عليكم بأنْ خلقكم رجالاً، وجعل لكم أزواجاً تسكنون إليهن، وجعل النكاح والطلاق والرجعة بأيديكم، ولم يضيق عليكم كما ضيق على الأولين.

﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: القرآن والسنة، أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما.

﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي: واعظاً به لكم ومخوفاً.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في شأن المحافظة عليه والقيام بحقوقه الواجبة.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء مما تأتون وما تذرون، فيؤاخذكم بأفانين العذاب[(١)].

قال الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: إنّ معنى بلغن هنا: قاربن.

وذكر إجماع العلماء على ذلك، واستدل بأنّ المعنى يضطر إلى ذلك؛

(١) تنوير الأذهان ١/١٨١.

لأنّه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك، والإمساك بمعروف: هو القيام بحقوق الزوجية[1].

قال الإمام الشوكاني في تفسير الآية: إذا طلقتم النساء فقاربن آخر العدة فلا تضاروهن بالمراجعة من غير قصد لاستمرار الزوجية واستدامتها، بل اختاروا أحد أمرين: إما الإمساك بمعروف من غير قصد لضرار أو التسريح بإحسان، أي: تركها حتى تنقضي عدتها من غير مراجعة ضراراً، ولا تمسكوهن ضراراً كما كانت تفعل الجاهلية في طلاق المرأة حتى يقرب انقضاء عدتها، ثم مراجعتها لا عن حاجة ولا لمحبة، ولكن لقصد تطويل العدة وتوسيع مدة الانتظار ضراراً لقصد الاعتداء منكم عليهن والظلم لهن ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ لأنه عرَّضها لعقاب الله وسخطه.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ﴾ أي: لا تأخذوا أحكام الله على طريقة الهزء؛ فإنها جد كلها، فمن هزل فيها فقد لزمته، نهاهم سبحانه أن يفعلوا كما كانت الجاهلية تفعل، فإنه كان يطلق الرجل منهم أو يعتق أو يتزوج ويقول: كنت لاعباً.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: النعمة التي صرتم فيها بالإسلام وشرائعه بعد أن كنتم في جاهلية جهلاء، وظلمات بعضها فوق بعض. والكتاب: هو القرآن والحكمة، قال المفسرون: هي السنة التي سنها لهم رسول الله ﷺ.

﴿يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾ أي: يخوفكم بما أنزل عليكم وأفرد الكتاب والحكمة بالذكر مع دخولها في النعمة دخولاً أولياً تنبيهاً على خطرها وعظم شأنها[2].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير الآية: هذا أمر من الله ﷻ للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة، أن يحسن في أمرها إذا

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/٩٦٣.

(٢) فتح القدير ١/٣١٤.

انقضت عدتها ولم يبق فيها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يمسكها؛ أي: يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف، وهو أن يشهد رجعتها وينوي عشرتها بالمعروف أو يسرحها؛ أي: يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ﴾ قال ابن عباس ﷺ: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق؛ لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: بمخالفة أمر الله تعالى.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ﴾ عن عبادة بن الصامت قال في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ﴾ قال: كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل: زوجتك ابنتي، ثم يقول: كنت لاعباً. ويقول: قد أعتقت، ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ﴾ فقال رسول ﷺ: **«ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب، فهن جائزات عليه: الطلاق، والعتاق، والنكاح»**[1].

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم.

﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة.

﴿يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾ أي: يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم.

---

(١) رواه أبو داود رقم (٢١٩٤)، والترمذي (١١٨٤)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٢٠٣٩) وصححه الحاكم ١٩٧/٢.

والمشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من طريق عبدالرحمٰن بن حبيب بن أردك، عن عطاء، عن ابن ماهك، عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث جدهن جد وهزلهن جد، النكاح والطلاق والرجعة»** وقال الترمذي: حسن غريب.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما تأتون وفيما تذرون.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك[١].

يقول العلامة ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾: جعل ظلمهم نساءهم ظلماً لأنفسهم؛ لأنه يؤدي إلى اختلال المعاشرة واضطراب حال البيت وفوات المصالح بشغب الأذهان في المخاصمات وظلم نفسه أيضاً لتعريضها لعقاب الله في الآخرة[٢].

المبحث الثاني

التوجيه الدعوي للآية

لم يستغل أعداء الإسلام شيئاً في انتقادهم على تشريع الإسلام كاستغلالهم المرأة، مع أنّ الإسلام أعطى المرأة من الحقوق والكرامة ما لم تعطها كل القوانين الوضعية التي تدَّعي اليوم أنها أعطت المرأة حريتها، وأنّ لها من الحقوق ما للرجل، وأنّ القوامة التي أرادها الإسلام على المرأة من قِبَل وليِّها أو زوجها إهانة للمرأة، وما عَرَفَ هؤلاء أنّ القوامة هي إكرام للمرأة وإعلاء لشأنها؛ بدليل اهتمام الإسلام بها، وشمل هذا الاهتمام الأسرة بأكملها، والإسلام اهتم بالمرأة وهي طفلة؛ فحرم وَأْدَهَا بعد ما كانت توءد وتقتل بلا ذنب، فأنقذها الله من هذه الجريمة النكراء، حفظها وهي بنت، فأصبحت نعمة بعد أنْ كانت نقمة في الجاهلية. وأخبر ﷺ في الحديث الذي روته عائشة، قال: «**من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار**»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٨٨/١ ـ ٢٨٩.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ٤٢٣/٢.

(٣) الجمع بين الصحيحين ـ رواه البخاري ومسلم، ١١٢/٤.

واهتم الإسلام بالأنثى كزوجة، ولا يوجد وصف أعظم وأرحم مما وصف الله به أواصر الزوجية فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

فبعد أن كانت تورث كالمتاع، أصبح لها حق، وبعد أن كانت تزوج بلا رغبة منها أصبح لها رأي مطاع، وبعد أنْ كانت بلا إرث، أصبح لها إرث ونصيب مما ترك زوجها أو أولادها أو والداها... إلخ.

وبعد أن كانت تعضل وتمنع من العودة إلى زوجها، أمر الإسلام بعدم عضلها وعدم منعها من العودة إلى زوجها إنْ رغبت بالعودة إليه، وبعد أنْ كان الزوج يتلاعب بها فلا يطلقها ولا يردها رداً كريماً، وإنما يجعلها كالمعلقة، جاء الإسلام ليؤكد أنّ المعاملة بالمعروف والحسنى يجب أن تسود العلاقات الزوجية، سواء اتصلت حبالها أو انفصمت عراها، ولا يصح أن تكون نية الإيذاء عنصراً من عناصرها. قال ﷺ: «**فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»(١).

وهذا المستوى الرفيع من السماحة في حال الانفصال والطلاق الذي تتأزم فيه النفوس وتنطمس فيه العقول، إلا عنصراً أعلى من ملابسات الحياة الأرضية، عنصراً يرفع النفوس عن الحقد، ويوسع من آفاق الحياة، إنه عنصر الإيمان بالله تعالى وتذكر نعمه في شتى صورها.

وبالإضافة إلى نعمة الإيمان: هناك الرزق والصحة والولد والأمن.

كذلك استحضار تقوى الله والرجاء في العوض منه إذا ما فشلت الحياة الزوجية وضاعت النفقة وذهبت الأماني والآمال التي كانت مبنية عليها، ورغم هذه النتيجة الصعبة مع كل زوج، جاء الإسلام يأمر بالمعروف

---

(١) رواه مسلم ٢١٣٧.

والإحسان إلى الطرف الآخر وعدم نسيان الجميل الذي ساد في يوم من الأيام بين الزوجين قبل أن تنفصم عرى حياتهما الزوجية ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

سبق أنْ بينّا واقع المرأة في الجاهلية والنظرة الدونية لها، شأنها في هذا شأن سائر الجاهليات السائدة في الأرض في ذلك الأوان، ثم جاء الإسلام يرفع عنها الأغلال التي غُلّتْ بها، ورفع النظرة إليها عندما قرر أنها والرجل من نفس واحدة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. وأمر الإسلام برفع العلاقات الزوجية من مرتبة العادة والشهوة إلى مرتبة العبادة والقدوة، ولم تكن المرأة لتحلم بهذا ولا كانت تتصوره، إنما هي الكرامة التي أفاضها الله من رحمته على الزوج والزوجة، بل وعلى الإنسانية جميعاً.

لقد أنشأ الإسلام هذه الأمّة، وكانت أقرب إلى العدم، فأنشأها ومنحها الوجود الكبير الذي عرفتهم به الإنسانية جميعاً، أعطاهم العقيدة الواضحة التي تفسر الوجود، من الذي خلقنا ولماذا خلقنا وإلى أين المصير. إنّ الإيمان بالله تعالى والعمل بما يرضي الله تعالى مكّن هذه الأمّة من قيادة البشرية قيادة رائدة، وأعطاهم الشخصية التي ميزتهم عن غيرهم، وجعلت لهم وجوداً بين الأمم، بل وأعطتهم القوة التي عرفتهم بها الدنيا، وحسبت لها ألف حساب، وأعظم من هذا كله: الطمأنينة التي أعطاهم الله إياها، طمأنينة القلب وراحة الضمير، والاستعلاء الإيماني الذي يريهم ضلال البشرية التي تعصف بها أمواج المبادىء المنحرفة من إلحاد وعبادة غير الله، من أهواء وشهوات ودعوات إلى الجاهلية الأولى، فيعلمون أن الله آتاهم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين، وأنّ التمسك بالمنهج القويم هو السبيل للنجاح والفلاح.

يقول سيد قطب تعليقاً على آية ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: فإذا ذكرهم الله بالنعمة هنا، فهم يذكرون شيئاً حاضراً في حياتهم لا يحتاج إلى

طول تذكر، وهم هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية ثم عاشوا في الإسلام في جيل واحد، وشهدوا هذه النقلة البعيدة التي لا تحققها إلا خارقة فوق تصور البشر، وهم يذكرون هذه النعمة ممثلة فيما أنزل الله عليهم من الكتاب والحكمة يعظهم به، والقرآن يقول لهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ بضمير المخاطب؛ ليشعروا بضخامة الإنعام وغزارة الفيض ولصوق النعمة بأشخاصهم، والله ينزل عليهم هذه الآيات، التي يتألف منها المنهج الرباني، ومنه دستور الأسرة قاعدة الحياة، ثم يلمس قلوبهم اللمسة الأخيرة في هذه الآية، وهو يخوفهم الله ويذكرهم أنه بكل شيء عليم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾، فيستجيش شعور الخوف والحذر، بعد شعور الحياء والشكر، ويأخذ النفس من أقطارها؛ ليقودها في طريق السماحة والرفق والتجمل[(١)].

يقول مصطفى السباعي: إنّ قضية المرأة هي قضية كل مجتمع في القديم والحديث؛ فالمرأة تشكل نصف المجتمع من حيث العدد، وأجمل ما في المجتمع من حيث العواطف، وأعقد ما في المجتمع من حيث المشكلات، ومن ثمة كان من واجب المفكرين أن يفكروا في قضيتها على أنها قضية المجتمع أكثر مما يفكر أكثر الرجال فيها على أنها قضية جنس متمم أو مبهج[(٢)].

المبحث الثالث

الدلالات الدعوية المستنبطة

١ ـ لم يتطاول أعداء الإسلام على انتقاد أحكامه وتشريعاته تطاولهم على الأحكام التي شرعها للمرأة المسلمة والتي اتخذوها وسيلة ورأس حربة للطعن في هذا الدين.

(١) في ظلال القرآن ١/٢٤٦.

(٢) المرأة بيت الفقه والقانون ـ مصطفى السباعي ـ ص٩.

٢ ـ لم تعرف البشرية في تاريخها تشريعاً أعطى المرأة حقوقها وصان كرامتها كالتشريع الإسلامي.

٣ ـ أكرم الإسلام الأنثى من حيث هي، طفلة وزوجة وأمّاً، وجعلها صنو الرجل عندما خلقها من نفس واحدة.

٤ ـ أوقف الإسلام مذبحة الإناث البشعة التي كانت تقوم بها الجاهلية الأولى، بعد أن حرّمها وبيّن فساد نشأتها وجريمة فاعلها.

٥ ـ صان الإسلام عرض المرأة التي أرادت الجاهلية المعاصرة أن تجعله سلعة للبيع والشراء، ونزلت فيه من القمة الشماء إلى درك الهاوية.

٦ ـ بيّن الإسلام أنّ وجود البنات نعمة لوالديهم، وأنهن وسيلة لدخول والديهم الجنة إنْ أحسنا تربيتهن كما أخبر المصطفى ﷺ.

٧ ـ بعد أنْ كانت المرأة في الجاهلية تورث كالمتاع، جاء الإسلام ليبطل هذا الإجرام بحقها؛ فأعطاها حرية الاختيار كما جعل لها نصيباً في الميراث من الزوج والأب والولد، فأصبحت ترث غيرها بعد أن كانت تورث كالمتاع ولا ميراث لها.

٨ ـ كانت المرأة تعضل من قبل وليّها بعدم العودة إلى زوجها، فجاء الإسلام ليمنع عضلها وليعطيها حرية العودة إلى زوجها إن أرادت ذلك.

٩ ـ أكرم الإسلام المرأة عندما حدد عدد الطلقات بثلاث بعدما كانت بلا عدد، مما يجعل الزوج السيِّئ يتفنن في إيذاء زوجته.

١٠ ـ رفع الإسلام مقام المرأة عندما حرم على زوجها التلاعب في طلاقها ثم إمساكها بغرض الإضرار بها، فلا هي مطلقة ولا هي زوجة وإنما يذرها كالمعلقة.

١١ ـ حث الإسلام على معاملة الزوج لزوجته بالمعروف، وأن تبنى العلاقات الزوجية على المودة والرحمة.

١٢ ـ أكد الإسلام على وجوب المعاملة بالمعروف وعدم نسيان الفضل بين الزوجين، سواء استمرت العلاقة الزوجية أو انفصمت عراها، وهذا المستوى الرفيع من السماحة لم يعرف في غير الإسلام.

١٣ ـ رفع الإسلام العلاقات الزوجية من مرتبة العادة والشهوة إلى مرتبة العبادة والقدوة.

١٤ ـ لم تكن المرأة تحلم بما أعطاها الإسلام من الحقوق، ولا كانت تتصوره، إنما هي رحمة من الله وكرامة لهذه المخلوقة التي عانت الكثير على أيدي أعداء الدين.

١٥ ـ على الدعاة أنْ يَعلموا ويعلّموا أنّ التمسك بالمنهج القويم هو السبيل للنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة.

١٦ ـ إنّ تقوى الله مفتاحُ كل خير والطريق إلى السعادة في الدارين.

الفصل الخامس

قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

المبحث الأول

بعض أقوال أهل التفسير

قال الإمام الآلوسي في تفسير هذه الآية: ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي: كسروهم وغلبوهم، أي: استجاب الله تعالى دعاءهم فصبروا وثبتوا ونصروا فهزموهم ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإرادته انهزامهم ويؤول إلى نصره وتأييده.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ «أخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال: لما برز طالوت لجالوت قال جالوت: أبرزوا إليّ من يقاتلني، فإنْ قتلني فلكم ملكي، وإنْ قتلته فلي ملككم...» فنصر الله داود على جالوت فقتله.

﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ فاجتمعت بنو إسرائيل على داود وملّكوه أمرهم فهذا إيتاء الملك.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ المراد بها النبوة ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبله، وذكر الحكمة بعد الملك لأنها كانت بعده وقوعاً أو للترقي من ذكر الأدنى إلى ذكر الأعلى.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ كصنعة اللبوس ومنطق الطير وكلام الدواب، والضمير المستتر راجع إلى الله تعالى(١).

(١) تفسير روح المعاني ـ الآلوسي ٢/٣٠٠.

يقول الإمام الطبري: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هزم طالوت وجنوده أصحاب جالوت وقتل داود جالوت، وأجاب الله دعاءهم الذي دعوه به، وداود هو نبي الله عليه السلام(١).

يقول الإمام القرطبي: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: فأنزل الله عليهم النصر، فكسروهم. والهزم: الكسر، ومنه سقاء منهزم: أي: انثنى بعضه على بعض مع الجفاف، والهزم: ما تكسر من يابس الحطب.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ وذلك أنّ طالوت الملك اختاره من بين قومه لقتال جالوت، وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم، وكان يهزم الجيش وحده، وكان قتل جالوت وهو رأس العمالقة على يد طالوت وداود.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل هذا الدفع بما شرع على ألسنة الرسل من الشرائع ولولا ذلك لتسالب الناس وتناهبوا وهلكوا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيّن سبحانه أنّ دفعه بالمؤمنين شرَّ الكافرين فضل منه ونعمة(٢).

يقول الشيخ ابن عاشور في التحرير والتنوير في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

ذيلت هذه الآية العظيمة كل الوقائع العجيبة التي أشارت بها الآيات السالفة؛ لتدفع عن السامع المتبصر ما يخامره من تطلب الحكمة في حدثان هذه الوقائع وأمثالها في هذا العالم، ولكون مضمون هذه الآية عبرة من عبر

---

(١) جامع البيان ـ الطبري ٥/٣٥٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ٣/٢٥٦.

الأكوان وحكمة من حكم التاريخ ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية، وقبل إدراك ما في مطاويها.

وأصل معنى الدفع: الضرب باليد للإقصاء عن المرام.

ومعنى الآية: أنه لولا وقوع دفع بعض الناس بعضاً آخر بتكوين الله وإيداعه قوة الدفع وبواعثه في الدافع لفسدت الأرض، أي: منْ على الأرض، واختل نظام ما عليها؛ ذلك أنَّ الله تعالى لما خلق الموجودات التي على الأرض من أجناس وأنواع وأصناف، خلقها قابلة للاضمحلال، وأودع في أفرادها سنناً دلت على أنَّ مراد الله بقاؤها إلى أمد أراده، ولذلك نجد قانون الاستخلاف منبثاً في جميع أنواع الموجودات، فما من نوع إلا وفي أفراده قوة إيجاد أمثالها لتكون تلك الأمثال أخلافاً عن الأفراد عند اضمحلالها، وهذه القوة هي المعبر عنها بالتناسل في الحيوان، والبذر في النبات، والنضح في المعادن، والتولد في العناصر الكيماوية.

ووجود هذه القوة في جميع الموجودات أول دليل على أنّ موجدها قد أراد بقاء الأنواع، كما أراد اضمحلال الأفراد عند آجال معينة، لاختلال أو انعدام صلاحيتها، ونعلم من هذا أنّ الله خالق هذه الأكوان لا يحب فسادها.

ثم إنَّ الله تعالى كما أودع في الأفراد قوة بها بقاء الأنواع، أودع في الأفراد أيضاً قوى بها بقاء تلك الأفراد بقدر الطاقة، وهي قوى تطلب الملائم ودفع المنافي، أو تطلب البقاء وكراهية الهلاك، ولذلك أودع في جميع الكائنات إدراكات تنساق بها، بدون تأمل أو بتأمل، إلى ما فيه صلاحها وبقاؤها، كانسياق الوليد لالتهام الثدي في الإنسان والحيوان.

وأودع أيضاً في جميع الكائنات إدراكات تندفع بها إلى الذب عن أنفسها، ودفع العوادي عنها.

ثم إنه تعالى جعل لكل نوع من الأنواع، أو فرد من الأفراد خصائص

فيها منافع لغيره ولنفسه؛ ليحرص كلٌّ على إبقاء الآخر، فهذا ناموس عام.

وخلق الله تعالى أسباب الدفاع بمنزلة دفع من الله يدفع مريد الضر بوسائل يستعملها المراد إضراره، ولولا هذه الوسائل التي خولها الله تعالى أفراد الأنواع، لاشتد طمع القوى في إهلاك الضعيف، ولاشتدت جراءة من يجلب النفع إلى نفسه على منافع يجدها في غيره، فابتزها منه، ولأفرطت أفراد كل نوع في جلب النافع الملائم إلى أنفسها بسلب النافع الملائم لغيرها، مما هو له، ولتناسى صاحب الحاجة حين الاحتياج ما في بقاء غيره من المنفعة له أيضاً.

وهكذا يتسلط كل ذي شهوة على غيره، وكل قوي على ضعيفه؛ فيهلك القوي الضعيف، ويهلك الأقوى القوي، وتذهب الأفراد تباعاً، والأنواع كذلك حتى لا يبقى إلا أقوى الأفراد من أقوى الأنواع، حتى إذا بقي أعوزته حاجات كثيرة لا يجدها في نفسه، وكان يجدها في غيره من أفراد نوعه، كحاجة أفراد البشر بعضهم إلى بعض.

ولما كان نوع الإنسان هو المهيمن على بقية موجودات الأرض، خصته الآية بالكلام؛ فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

فلا جرم لولا دفاع الناس بأنْ يدافع صالحهم المفسدين، لأسرع ذلك في فساد حالهم. وأعظم مظاهر هذا الدفاع: الحروب؛ فبالحرب الجائرة يطلب المحارب غصب منافع غيره، وبالحرب العادلة ينتصف المحق من المبطل، ولأجلها تتألف العصبيات والدعوات إلى الحق.

ثم إنّ دفع الناس بعضهم بعضاً يصد المفسد عن محاولة الفساد.

وقوله: ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: من على الأرض.

والآية مسوقة مساق الامتنان؛ فلذلك قال تعالى: ﴿لَّفَسَدَتِ

﴿ٱلْأَرْضُ﴾؛ لأنَّا لا نحب فساد الأرض، إذ في فسادها ـ بمعنى فساد ما عليها ـ اختلال نظامنا وذهاب أسباب سعادتنا.

ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ففضله عظيم على المخلوقات جميعاً بهذا التدافع الذي يمنع بسببه الفساد والإفساد، وعلَّق الفضل بالعالمين كلهم؛ لأنَّ هذه المنة عامة للجميع، ولا تختص بأحد عن أحد[1].

جاء في تفسير الشيخ السعدي: أنّ جالوت وجنوده كانوا كفاراً، فاستجاب الله دعاء المؤمنين لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾. وكان عليه السلام مع جنود طالوت، فباشر قتل الملك بيده، لشجاعته وقوته وصبره.

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني داودَ عليه السلام، أي: منّ عليه بتملكه على بني إسرائيل، مع الحكمة؛ وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم.

ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم في الأرض.

وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن: لم يحصل ذلك؛ فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ...﴾ أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله وإظهار دينه.

(١) التحرير والتنوير ـ ابن عاشور ـ ٢/٤٧٣ بتصرف.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم، ومكنهم في الأرض بأسباب يعلمونها وأسباب لا يعلمونها[1].

يقول ابن كثير في قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أي: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم.

وبعد قتل جالوت آل الملك إلى داود عليه السلام، مع ما منحه الله من النبوة العظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: لولا أنه يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: منَّ عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله[2].

يقول صاحب «الظلال» في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار.

---

(١) تفسير السعدي ١/١٠٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/٣١٠ بتصرف.

وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس، في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات، ومن ورائها جميعاً تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعاً، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق، إلى الخير والصلاح والنماء في نهاية المطاف.

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض.

ولولا أنّ في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أنْ تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبداً يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة، وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء، يكون بقيام الجماعة الخيِّرة المهتدية المتجردة، تعرف الحق الذي بيَّنه الله لها. وتعرف طريقها إليه واضحاً، وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض، وتعرف أنْ لا نجاة لها من عذاب الله إلا أنْ تنهض بهذا الدور النبيل، وإلا أنْ تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه.

وهنا يمضي الله أمره، وينفذ قدره، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية التي استجاش الصراع، أنبل ما فيها وأكرمه، وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر؛ ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض وتمكين الصلاح في الحياة، إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار(١).

(١) في ظلال القرآن ١/٢٦٤ ـ ٢٦٥.

المبحث الثاني

التوجيه الدعوي للآية

أخبر تعالى أنّ أهل الإيمان هزموا أهل الكفر ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ولكن هذه الهزيمة لم تكن بسبب إعدادهم العدة والعتاد وأخذ أسباب القوة من خيل وركاب، بل بإذن الله.

إذن الأمر مرتبط بإرادة فوق إرادة البشر؛ إرادة علوية تقدر وتشاء وتهيِّئ الأسباب، فيكون النصر أو الهزيمة، وهذه الحقيقة هي الفيصل بين أهل الحق وأهل الباطل، بين أهل الإيمان وأهل الكفر.

إنّ المؤمن يزداد قوة بإيمانه كلّما عركته الحياة؛ لأنه يعلم حقيقة ما يجري في هذا الكون، بينما الكافر يبني كل أمله وتوقعاته على ما يرى من قوة ظاهرية يقدرها من الناحية المادية من كم وكيف، وهو غافل كل الغفلة بل جاهل كل الجهل بأنَّ قوةً أخرى غير متطورة هي التي تشاء وتقدر، تنصر وتهزم، وبالنتيجة يكون ما تريد هي؛ لأنّ لها الأمر والنهي من قبل ومن بعد.

إنّ المؤمن يعلم أنّ الأمر بيد الله، وأنّ الله يفعل ما يشاء، ولكن الله تعالى يكرم عباده الصالحين فيختارهم لتنفيذ مشيئته، فيكون منهم ما يريده، بإذنه تعالى، وهذه الحقيقة تجعل قلب المؤمن عامراً بالإيمان والطمأنينة للدور الذي يقوم به من إعمار الأرض بإحقاق الحق وإبطال الباطل ونشر العدل بين الناس، والمؤمن على يقين أنّ ما يقوم به هو بتوفيق الله له، ولولا هذا التوفيق لما استطاع أنْ يواجه صعاب الحياة الكثيرة أو أنْ ينتصر في معركة على عدوِّه، ثم إنه مستيقن من بذل الغاية من نقاء السريرة وطهارة القلب وحسن النية ووضوح الطريق.

ولو كان هذا ديدن المرء فلن تقف في وجهه عقبة كأداء، ولن تخيفه

قوة غاشمة؛ لأنّ الله تعالى سيجزيه بالحسنات إحساناً، وبالسيئات عفواً وغفراناً.

والمؤمن كما أخبر المصطفى ﷺ في كل أحواله على خير؛ فقد قال ﷺ: «**عَجباً لأَمرِ الْمُؤمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ وَلَيسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيراً لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيراً لَهُ**»[(1)].

ومن توجيه الآية: أنّ الله تعالى ينصر القلة على الكثرة، والضعفاء على الأقوياء، والصغير على الكبير؛ فقد ورد أنّ داود عليه السلام كان فتى من بني إسرائيل، وكان أصغر إخوته في السن، وكذلك كان صغير الحجم في الجسم، بينما كان جالوت عملاقاً من العمالقة ومشهوراً بالقوة والبطش، وكان مشهوداً له بالنصر على أعدائه، حتى قيل أنّ بإمكانه أن يهزم جيشاً كاملاً. هذه الصورة المرسومة في أذهان الناس قد انقلبت رأساً على عقب عندما واجه أهل الإيمان أهل الكفر والطغيان، وتمسكوا بشريعة ربهم الديّان، فنصرهم الله على هذا الجبار، وقلبت المشيئة الربانية كل المفاهيم المادية التي تزعم بأنّ النصرَ للمستبد، والبقاءَ للأقوى، وأنّ الفئة الكثيرة تغلب الفئة القليلة، حتى كادت أن تكون هذه القواعد المادية حقيقة مسَلّمة لدى الناس، حتى رأى الناس رأي العين أنّ ما يزعمونه حقيقة مسلّمة قد تغيرت عندما أصبح القتال بين أهل الإيمان والإصلاح مع أهل الكفر والإفساد؛ فغلبت الفئة القليلة بعددها وعتادها الفئةَ الكثيرة بعددها وعتادها.

طاشت عقول الناس، كيف حصل ذلك؟!، وما علموا أنّ الله هو الناصر والمعز من يشاء، وهو المذل من يشاء، وهو القائل: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

فالأمر لله، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء؛ فأعطى الله داود النصر ومكّنه من قتل جالوت الجبار؛ ليري الناس أنّ الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف يقتلهم الفتية الصغار في السن حين يشاء الله أن يقتلهم. وبانتصار داود عليه السلام يعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة، لا للقوة المادية، وللإرادة المستعلية، لا للكثرة العددية.

وتظهر للملأ الغاية العليا من اصطراع تلك القوة أنها ليست المغانم ولا الأمجاد، إنما هو الصلاح في الأرض والتمكين للخير بالصراع مع الشر.

المبحث الثالث

الدلالات الدعوية المستنبطة

١ ـ ليعلم أهل الحق أن النصر على الأعداء ليس بسبب إعداد العدة فقط؛ إنما هو فضل من الله، وإنفاذ مشيئة. ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ كذلك الهزيمة للعدو ليس من مقتضياتها أخذ الحذر والحيطة فقط، بل هي أمر من الله تعالى ورحمة بالمؤمنين ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ إنَّ الإنسان المؤمن بربه يزداد قوة عند الملمات؛ لأنه يعلم حقيقة ما يجري في هذا الكون.

٤ ـ إنَّ الكافر يزداد خيبة فوق خيبته عندما يبني النصر على ما أعد من خيل وركاب تفوق ما عند عدوه ثم يمنى بالهزيمة، وهذه الخيبة سببها رؤية الظاهر والغفلة عن رؤية ما عند الله من قدرة على تغيير الموازين لمن يشاء سبحانه.

٥ ـ إنَّ الله يكرم أهل الإيمان عندما يستعملهم في قمع أهل الكفر والضلال.

٦ ـ إنَّ المؤمن الموقن بأنَّ الله يفعل ما يشاء، وأنَّ الخير والشر بيده

يجعله مطمئناً إلى قضاء الله وقدره متقبلاً ما أصابه حتى لو هزم أمام عدوه فيعلم أنَّ في ذلك حكمة فيقر بها ويسلم أمره إلى الله وإنْ لم يعلمها.

٧ ـ من صفات أهل الإيمان أنهم يشكرون الله في السراء فيعترفون بفضله، ويصبرون ويحتسبون على الضراء ويقبلون بمشيئته بصدر رحب، وكلا الأمرين لهم خير وهذا لهم وليس لغيرهم.

٨ ـ لقد ورث الناس مفاهيم كانت شبه ثابتة لديهم؛ وهي أنَّ القوي يغلب الضعيف، وأنَّ الأكثر يغلبون الأقل، وأنَّ صاحب السلاح الأشد فتكاً يغلب من دونه حتى إذا قاتلوا أهل الإيمان انقلبت هذه الموازين جميعاً فغلبت الفئة القليلة بعددها وعتادها الفئة الكثيرة بخيلها وركابها وعدتها بإذن الله تعالى.

٩ ـ سن الله السنن في خلقه وهو القادر على تغييرها عندما يريد، فقد جعل خاصية النار: الإحراق، ولكن جَعَلَها برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام.

١٠ ـ جعل الله القلة المؤمنة تغلب الكثرة الكافرة؛ فغلب داودُ رغم حجمه الصغير وحداثة سنه جالوتَ العملاق الذي كانت تهابه الفرسان أصحاب البأس والشدة.

١١ ـ إنَّ قتل داود لجالوت الطاغية درس للناس ليروا أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف يقتلهم الفتية الصغار حين يشاء الله أنْ يقتلهم.

١٢ ـ إنَّ انتصار داود يعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة بربها لا للقوة المادية الغاشمة وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية.

١٣ ـ إنَّ دفع الله الناس بعضهم ببعض، يولد تنافس الناس واستغلال الطاقات.

١٤ ـ إنَّ هذا التنافس ليس عبثياً، وإنما من ورائه إرادة عليا ربانية تمسك بزمام الأمور وتقود الموكب المتزاحم إلى الخير والنماء في نهاية المطاف.

١٥ ـ إنَّ التدافع يدفع عن الأمة الكسل ويستجيش ما فيها من مكنونات لاستخراج خيرات الأرض للبناء والإعمار.

١٦ ـ إنَّ قيام الجماعة الخيرة المهتدية التي تعرف الحق الذي بيَّنه الله لها وتعرف طريقها إليه وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق، وأنَّ نجاتها في طاعة الله وابتغاء مرضاته مهما كلفها ذلك من تبعات.

الفصل السادس

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩].

المبحث الأول

بعض أقوال أهل التفسير

يقول الإمام القرطبي: وردت كلمة «حكمة» في مواضع عديدة من الكتاب العزيز، وذهب المفسرون إلى تفسير معناها في كل موضع بحسب السياق الذي وردت فيه، فتارةً تفسر بالسنة، وتارةً بالموعظة، وتارةً بالقرآن. أما في هذا الموضع فإنّ للعلماء في تفسيرها أقوالاً كثيرة، منها: النبوة، والفقه في القرآن، والمعرفة بدين الله والفقه فيه والاتباع له، والخشية والورع(١).

روى ابن وهب عن مالك أنه قال في الحكمة: أنها المعرفة بالدين والفقه في التأويل، والفهم الذي هو سجية، ونور من الله تعالى(٢).

جاء في التحرير والتنوير: وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم، وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم، وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل(٣).

والحكمة: العلم بالله ودقائق شرائعه، وهي معاني الكتاب وتفصيل مقاصده. وعن مالك: الحكمة معرفة الفقه والدين والاتباع لذلك.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/٣٣٠.
(٢) المرجع السابق ٢/١٣١.
(٣) ابن عاشور ١/٤١.

وعن الشافعي: الحكمة سنة رسول الله ﷺ[1].

قوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ومن يشاء الله تعالى إيتاءه الحكمة هو الذي يخلقه مستعداً إلى ذلك من سلامة عقله واعتدال قواه؛ حتى يكون قابلاً لفهم الحقائق منقاداً إلى الحق إذا لاح له، لا يصده عن ذلك هوى ولا عصبية ولا مكابرة ولا أنفة.

وفسرت الحكمة بأنها معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بما تبلغه الطاقة، أي: بحيث لا تلتبس الحقائق المتشابهة بعضها مع بعض ولا يغلط في العلل والأسباب[2].

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تذييل للتنبيه على أنّ من شاء الله إيتاءه الحكمة هو ذو اللب، وأنّ تذكر الحكمة واستصحاب إرشادها بمقدار استحضار اللب وقوته. واللب في الأصل خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان؛ لأنه أنفع شيء فيه[3].

جاء في تفسير السعدي في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾:

لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن منَّ عليه وآتاه الله الحكمة؛ وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً، وأيّ خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما؟!

وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء؛ فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوتيه العلمية والعملية، فتكميل قوته

(١) المرجع السابق ٧٢٣/١.
(٢) المرجع السابق ٦١/٣.
(٣) ابن عاشور ٦٤/٣.

العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكِّرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه؛ فانقسم الناس قسمين، قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب[1].

وأضاف الشيخ السعدي: لما ذكر الله أحوال المنفقين للأموال، وأنّ الله أعطاهم، ومنّ عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه.

والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام.

(١) تفسير السعدي ص١١٥ بتصرف.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه.

وهذان الأمران، وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: **«لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس»**[1].

جاء في تفسير العز بن عبدالسلام في معنى «الحكمة» قال: الفقه في القرآن، والعلم بالدين، أو الفهم، أو النبوة[2].

ورد في زاد المسير معنى الحكمة في قوله تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾: المراد بهذه الحكمة أحد عشر قولاً:

أحدها: أنها القرآن، قاله ابن مسعود، ومجاهد، والضحاك، ومقاتل في آخرين.

والثاني: معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره، ونحو ذلك، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثالث: النبوة، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والرابع: الفهم في القرآن، قاله أبو العالية، وقتادة، وإبراهيم.

(١) رواه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).

(٢) تفسير العز بن عبدالسلام ١/١٣٥.

والخامس: العلم والفقه، رواه ليث عن مجاهد.

والسادس: الإصابة في القول، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد.

والسابع: الورع في دين الله، قاله الحسن.

والثامن: الخشية لله، قاله الربيع بن أنس.

والتاسع: العقل في الدين، قاله ابن زيد.

والعاشر: الفهم، قاله شريك.

والحادي عشر: العلم والعمل(١).

قال صاحب البحر المحيط في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

أصله: يتذكر، فأدغم التاء في الذال، و﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، هم أصحاب العقول السليمة، وفي هذا حث على العمل بطاعة الله والامتثال لما أمر به من الإنفاق ونهى عنه من التصدّق بالخبيث، وتحذير من وعد الشيطان وأمره، ووثوق بوعد الله، وتنبيه على أنّ الحكمة هي العقل المميز به بين الحق والباطل، وذكر التذكر لما قد يعرض للعاقل من الغفلة في بعض الأحيان، ثم يتذكر ما به صلاح دينه ودنياه فيعمل به(٢).

جاء في تنوير الأذهان في تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾:

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ﴾: مواعظ القرآن، ومعنى إيتائها تبيينها والتوفيق للعلم والعمل بها، أي: يبينها ويوفق للعمل بها من يشاء من عباده، أي: يؤتيها

(١) زاد المسير ـ لابن الجوزي ١/٢٧٨.
(٢) تفسير البحر المحيط ٣/٦٦.

إياه بموجب سعة فضله وإحاطة علمه كما آتاكم ما بينه في ضمن الآي من الحكم البالغة التي عليها يدور فلك منافعكم فاغتنموها وسارعوا إلى العمل بها.

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: يعط العلم والعمل ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، أي: خير كثير؛ فإنه قد حيز له خير الدارين.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي: وما يتعظ بما أوتي من الحكمة إلاَّ أُولُو الأَلْبابِ، أي: العقول الخالصة من شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى[(١)].

جاء في فتح القدير في تفسير هذه الآية:

قوله: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ﴾ هي العلم، وقيل: الفهم، وقيل: الإصابة في القول، ولا مانع من الحمل على الجميع شمولاً أو بدلاً، وقيل:

إنها النبوة، وقيل: العقل، وقيل: الخشية، وقيل: الورع. وأصل الحكمة: ما يمنع من السفه، وهو كل قبيح، والمعنى: أنّ من أعطاه الله الحكمة فقد أعطاه خيراً كثيراً، أي: عظيماً قدره، جليلاً خطره. والألباب: العقول، وأحدها لب[(٢)].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

قال ابن أبي نَجِيح عن مجاهد: يعني بالحكمة: الإصابة في القول.

وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن.

---

(١) تفسير روح البيان ٢١١/١.
(٢) فتح القدير ٣٥٦/١.

وقال إبراهيم النَخعي: الحكمة الفهم.

وقال أبو مالك: الحكمة السنة.

وقال ابن وهب عن مالك: قال زيد بن أسلم: الحكمة العقل.

وقال مالك: وإنه ليقع في قلبي أنّ الحكمة هي الفقه في دين الله، وأمْرٌ يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك، أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا ذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه، عالماً بأمر دينه، بصيراً به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا؛ فالحكمة الفقه في دين الله.

وقال السدي: الحكمة النبوة.

والصحيح أنَّ الحكمة كما قال الجمهور لا تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع، كما جاء عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: **«لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»**[1].

وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام[2].

المبحث الثاني

التوجيه الدعوي للآية

أخبر تعالى في الآية التي سبقت هذه الآية عن الشيطان وكيف يَعِد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء، وبالمقابل فإنّ الله تعالى يَعِد عباده بالمغفرة

(١) رواه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/٣٢٩.

والفضل الواسع الذي لا حدود تحده ولا سدود تسده.

ثم يعقب تعالى بقوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾، والحكمة بمفهومها الشامل الذي ذكره العلماء: هي توخي القصد والاعتدال، وإدراك العلل والغايات، ووضع الأمور في نصابها في تبصر وروية وإدراك؛ فمن نتائج الحكمة وآثارها على الفرد والمجتمع: الاعتدال، والاعتدال وسط بين الإفراط والتفريط؛ فهو فضيلة بين رذيلتين.

والوسطية من خصائص الأمة المسلمة، قال تعالى مبيناً فضله على أمته: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الوسطية يحتاج إليها المجتمع في كل أحيانه، وخصوصاً عندما تكثر الدعوات المتناقضة، بعضها يدعو إلى التحرر من كل الأخلاق والقيم، وبعضها يدعو إلى التطرف وأخذ الناس بالشدة وعدم الرضا بالطرف الآخر؛ ففي هذه الظروف الحرجة تتجلى أهمية الوسطية لتقريب وجهات النظر ودفع الأطراف المتناقضة والمتحاربة أحياناً إلى نقاط محددة تجمع الفرقاء المتحاربين؛ فبالاعتدال يمنع الفحش وتعدي الحدود، وبالحكمة تدرك العلل والغايات فلا يضل في فهم القضية ولا يخطىء في تقدير الأمور.

والحكمة تكون البصيرة المستنيرة التي تدل صاحبها على الصالح العام، وتبعده عن المصالح الشخصية التي أفسدت المجتمع، وكادت تطيح بأخلاقياته ومبادئه، وصدق الله تعالى القائل: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾؛ فمن الخير الكثير: إصلاح الاقتصاد، وإصلاح مفاهيم التعليم، والإصلاح بين الأقرباء والأصدقاء والجيران والأزواج، وبين سائر طبقات المجتمع، وإصلاح ذات البين، وإصلاح الساسة. ومن أعظم الإصلاح: أنْ يعود الناس إلى منهج الله الحق الذي شرعه لعباده؛ فهو المنهج الذي يوحدهم ويجعلهم أقوياء أمام عدوِّهم.

ثم يختتم تعالى الآية بقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فصاحب العقل هو الذي يتذكر فلا ينسى، ويتنبه فلا يغفل، ويعتبر فلا يلج في الضلال، وقد فضل الله الإنسان على غيره بالعقل، الذي من وظائفه أنْ يذكر منهج الوحي ودلائل هديه، وأنْ ينتفع بها فلا يعيش غافلاً عنها.

ومن التوجيهات الدعوية للآية: أنّ الحكمة فضل من الله يعطيها من يشاء من عباده؛ فهي معقودة بمشيئة الله، ومردّ كل شيء إلى مشيئة الله سبحانه، وهو العاطي والمانع، وفي الوقت نفسه يقرر القرآن حقيقة أخرى، وهي: أنّ من أراد الهداية وسعى لها سعيها فإنّ الله تعالى لا يحرمه منها، بل يعينه عليها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩] وأي كرم أعظم من إعطاء الله ما يتمنى المرء إذا اتبع منهجه وسار على هداه المستقيم؟!

المبحث الثالث

الدلالات الدعوية المستنبطة

١ ـ الحكمة ثمنها المجاهدة، أما العلم فثمنه المدارسة.

٢ ـ بالحكمة يسعد الرجل بأهله وإن كان فقيراً، ومن غيْرِ الحكمة يشقى وإن كان غنياً.

٣ ـ الحكيم هو الذي يركب المعرفة النظرية مع الخبرة العلمية من أجل بناء وتشكيل المفهومات العامة في سبيل الوصول إلى رؤية شاملة.

٤ ـ لله تعالى حِكَمٌ في أقواله وأفعاله ومشيئته وقدره؛ فعلى المؤمن أن يحمد الله إنْ عرف الحكمة، وإنْ لم يعرفها فليقل: آمنت بالله ورضيت بقضائه.

٥ ـ من أعطاه الله الحكمة فقد أعطاه خيراً كثيراً، والكثير عند الله لا حدود له.

٦ ـ من مفاهيم الحكمة: وضع الأمور في موضعها، في تبصر وروية وإدراك.

٧ ـ من معاني الحكمة: القصد والاعتدال وإدراك العلل والغايات.

٨ ـ من نتائج الحكمة وآثارها على الفرد والمجتمع: الاعتدال.

٩ ـ الاعتدال وسط بين الإفراط والتفريط.

١٠ ـ من خصائص أمّة الإسلام أنْ جعلها الله أمّة وسطاً.

١١ ـ يحتاج المجتمع إلى الوسطية في كل أحيانه، خصوصاً عندما تكثر الدعوات المتناقضة.

١٢ ـ من نتائج الوسطية: جمع الأفرقاء المتشاكسين على كلمة سواء توحد صفهم بدل تشتيته وتفرقه.

١٣ ـ بالاعتدال يمنع التطرف وتعدي الحدود.

١٤ ـ من نتائج الحكمة: الإصلاح بمفهومه العام، يشمل الإصلاح بين الراعي والرعية، ويمتد إلى إصلاح الفرد والأسرة والقبيلة والمجتمع والدولة.

١٥ ـ من أعظم الإصلاح: أنْ يعود الناس إلى منهج الله تعالى الذي شرعه لعباده؛ فهو السبيل إلى توحيدهم وتقوية شوكتهم أمام أعدائهم.

١٦ ـ ختم الله الآية بقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وهو مبين أنّ صاحب العقل السليم هو الذي يتذكر فلا ينسى، ويتنبه فلا يغفل، ويعتبر فلا يلج في الضلال.

١٧ ـ الحكمة فضل من الله، يمنحها من يشاء من عباده، ويمنعها عمن يشاء من عباده.

١٨ ـ المؤمن يردّ كل شيء إلى مشيئة الله تعالى؛ فهو المعطي والمانع، ما أعطاه فلا مانع له، وما منعه فلا معطي له.

١٩ ـ العمل الدعوي اليوم يجب أنْ يكون فيه الاختصاصيون؛ لأنه محتاج حاجة ماسة إلى الحكماء الذين يمزجون بين العلوم والثقافات المختلفة، ويخلصون منها إلى مداواة العلل المستعصية من أجل الإصلاح والنهضة.

٢٠ ـ إنّ الحكمة أمُّ الوسائل والأساليب، لكنها أكبر من أنْ تحصر في منهج من المناهج، إنها معرفة تتأبى عن التنظيم؛ فهي دائماً مرفرفة على حين أنّ العلم معرفة منظمة.

٢١ ـ الحكمة خير كثير متجدد، ويهبها الله تعالى من يشاء من عباده.

الخاتمة

إنّ أبلغ القول قولُ الله تعالى، وأعظمَ التوجيه وأدقَّه ما وجه إليه القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

وإنَّ أحسن الطرق في دعوة الناس ومخاطبتهم: طريقةُ القرآن الكريم وطريقةُ النبي ﷺ؛ فقد أعطى الله رسولَه ﷺ الحكمة حتى ملأ قلبه الطاهر منها، وعلَّم ﷺ أصحابَه هذه الحكمة قولاً وفعلاً، حتى أصبحوا جيلاً فريداً معلِّماً للبشرية، لم يعرف التاريخ له مثيلاً، ونَقَلَ الصحابة الكرام هذه الحكمة إلى خلَفهم من الأمّة، حتى أصبحت خير أمّة أخرجت للناس.

إنّ من أعظم الأساليب الناجحة في الحكمة: الدعوةُ إلى الله، فمن وُفِّق إليها من الدعاة فسوف يبارك الله في جهوده، ومن حُرِمَها فالأولى له أنْ يبحث عنها قبل أن يدخل إلى ميدان الدعوة؛ إذ أنّ فاقد الحكمة سوف يخرب بدل أنْ يصلح، ويدمر بدل أن يعمر.

إنّ الداعية لا يكون حكيماً في كل تصرفاته وجميع أموره إلا بتوفيق الله له وتسديده إياه.

إنّ الداعية الحكيم هو الذي يعرف أحوال المدعوين الاجتماعية والاعتقادية والنفسية والاقتصادية، ويعرف مراكز الضلال ومواطن الانحراف وعادات أهله والشبه التي تعلق بأذهانهم، ثم ينزل الناس منازلهم ويدعوهم على قدر عقولهم وأفهامهم، ويعطي الدواء على حسب الداء.

إنّ العلم لا يكون من دعائم الحكمة إلا باقترانه بالعمل الصالح، وهذا

ما ميّز جيل الصحابة الكرام؛ فكان علمهم مقروناً بالعمل والإخلاص والنية الحسنة.

إنّ تأليف قلوب المدعوين بالعفو والرفق والإحسان له أعظم الأثر في نفوس الناس، بل ربما زاد على أثر التأليف بالمال أو المتاع.

على الداعية الناجح أن يقدم الأهم على المهم، وإذا تعارضت مصلحة ومفسدة وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة فعليه أن يدفع إحدى المفسدتين أو الضررين باحتمال أيسرهما وتحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما.

إنّ الحكمة هبة من الله، يعطيها لمن يشاء، ويحرمها ممن يشاء، فمن أعطيَها فليحمد الله وليقم بواجبه نحوها؛ لأن في ذلك الخير الكثير، وصدق الله القائل: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. وصلى الله وبارك على نبينا محمد معلِّم الناس الخير وعلى آله وصحبه وسلم.